

كيف قرأ العرب "طاغور"

د. أحمد رفيق عوض

هذه الورقة اختصار لدراسة اعدھا الكاتب لتكون جزءا من المجلد باللغة الانجليزية، عن شاعر الهند الكبير طاغور بمناسبة مرور مئة عام على نیله جائزة نوبل للآداب. والمجلد سيصدر في نهاية هذا العام، وهو باشراف الدكتورة الهندية اوما داس غوبتا، وبتحرير البروفسور إمري بانغا من جامعة اوكسفورد

المقدمة :

السؤال الذي يتمحور حوله هذا البحث: كيف قرأ الكتاب والمبدعون العرب الشاعر الهندي الكبير طاغور! كيف قرأوه ومن أي زاوية، وهل حشروه في زاوية التصوف أو الرومانسية؟ وهل قرأوه باعتباره الثائر ضد الإحتلال الإنجليزي أم التربوي صاحب الرؤية والسيكولوجية ؟ هل حاولوا قراءته من خلال المرجعيات الدينية التي تختلف إلى حد كبير عن المرجعيات الدينية في المنطقة العربية؟ وهل انتقدوه بشكل منهجي أم انبهروا به إلى درجة عدم الاشتباك معه أو مساءلته؟ وهل ظهرت تأثيرات هذا الشاعر في تيارات شعرية أو فنية عربية يمكن الحديث عنها ؟ وما هي الصورة النمطية التي رسمها ورسخها هؤلاء لهذا الشاعر؟! .

ويقوم هذا البحث على فرضية تدعي أن الاهتمام العربي بطاغور لم يتوقف أبداً في حدوده الدنيا على الأقل، وأن فترة التأثير الكبير به تختلف عن فترة الكتابة عنه بشكل كبير، فقد كانت فترة التأثير به وتقليده ما بين الحربين العالميتين، أما فترة الكتابة الواسعة عنه فقد كانت بعد ذلك بسنوات. أي أن فترة التأثير به تختلف عن فترة الكتابة عنه.

تدعي الفرضية هنا أن فترة ما بين الحربين العالميتين شهدت حركات وجمعيات وجماعات أدبية عربية

حاولت أن تغير الشعر العربي على مستوى المضمون والشكل، فوجدت في طاغور تجربة تستحق الاهتمام، أما بعد الحرب العالمية الثانية وما حصل في العالم العربي من تغيرات عميقة فقد انصرف الإبداع العربي إلى نزعات واتجاهات أخرى ليس فيها مكان لتجربة طاغور أو عوامله. ورغم ذلك، ظل الاهتمام بهذا الرجل ملحوظاً، إلى درجة أن الكتابة عنه أو ترجمة أشعاره ما تزال تجد من ينشرها ومن يقرأها حتى اللحظة، وهذا يعود إلى افتراض أن الإهتمام العربي بطاغور لا ينبع فقط من تجربة إبداعية فذة، وإنما من ذلك الإنبهار بالشخصية التي وجد فيها المبدعون والكتاب العرب أوجه شبه كبيرة وكثيرة معه، باعتباره شخصية إبداعية قادمة من المشرق، وقدمت نموذجاً جيّداً في مواجهة الغربي وثقافته وعالمه دون استعلاء ودون تعصّب، إلى ذلك فإنّ الفرضية التي يقوم عليها البحث أيضاً تدّعي أنّ تقديم طاغور للقارئ العربي يخلو إلى حد كبير من النقاش معه أو حوله، أي أنّه يقدم بصورته النموذجية المثالية، كشاعر يدعو إلى الحب الإنساني والإنسان العالمي دون ربطه بأيّة أفكار أو دعاوى مشابهة، أو حتى دون الإشارة إلى عيوبه الفنيّة أو عيوبه المسلكية أو مواقفه القوميّة والوطنية المثيرة للجدل. يُقدم طاغور عادةً باعتباره "عبقرياً" أو شخصية عالميّة " ذات سحر خاصّ " أو شخصية عالمية " محايدة " لا يستطيع أي طرف أو حزب استخدامه أو توظيفه، وهو بذلك لا يثير أو يستفزّ أحداً على المستوى السياسي أو الطائفي أو المذهبي، وهذا ما دفع بعض الدول إلى إقرار بعض أعمال الشاعر ضمن المقرّرات المدرسيّة أو الجامعيّة .

البدايات

في العام ١٩٤١ وهي السنة التي مات فيها طاغور، أصدر الشاعر المصري حسين عفيف ديواناً بعنوان "العبير"، وقد أهداه إلى روح الشاعر الراحل ملمحاً إلى تأثره به، وفي هذا الديوان وغيره من الدواوين التي أصدرها الشاعر المصري نلمس ذلك الجو الصوفي الذي يعكس روح الشرق، وتتردد فيه أصداً من الشاعر الهندي الكبير طاغور ومن عمر الخيام، كما تعكس تحليلاً شعورياً لكُنْهُ الطبيعة وسحر المرأة ومعنى الحياة والموت، كل ذلك في أسلوب " نثري شعري " رقيق تتقابل المقاطع فيه وتتواءم الأسجاع وتتوازن الجمل ويوظف التشبيه توظيفاً فعالاً في بناء الصور والمجازات، مما يكشف عن فيض الدلالات العاطفية والروحية .

هذه التحية لروح الطاغور كانت تعني أن الرجل كان معروفاً لدى النخبة المثقفة العربية وخاصة المصرية منذ أن حصل طاغور على جائزة نوبل عام ١٩١٣ وبعد ترجمة ديوانه " جيتا نجالي " إلى الإنجليزية بمقدمة للشاعر الإيرلندي الشهير وليم بتلر بيتس، وإلى اللغة الفرنسية التي حققها الأديب الفرنسي الكبير أندريه جيد وقد كان طانيوس عبده أول عربي ترجم " البيت والعالم " لطاغور وصدرت عن دار الهلال في القاهرة في العام ١٩٢٥، وتلاه وديع البستاني في ترجمة مختارات من ديوان " البستاني " وصدرت عن مطبعة المعارف في أواخر العشرينات من القرن الماضي، هذا على الأقل ما يقوله الكاتب ريمون قسيس في مقالة سنشير إليها فيما سيأتي، وبذلك تكون النخبة العربية المثقفة قد تعرفت على بعض أعمال الشاعر الهندي

الكبير في وقت مبكر، وقد حظيت تلك النخبة بلقاء الشاعر في العام ١٩٢٦، وذلك في زيارته التي قام بها إلى مصر في ٢٧ من نوفمبر عام ١٩٢٦، وقد التقى طاغور في تلك الزيارة بكبار شعراء وأدباء مصر من أمثال أمير الشعراء العرب في ذلك الوقت أحمد شوقي وكذلك ألمع شخصيات الفكر والسياسة المصرية كسعد زغلول وأحمد لطفي السيد وحافظ إبراهيم ومحمد حسين هيكل وعبد العزيز البشري، وقد بلغ الاحتفاء بطاغور إلى درجة أنه تم تأجيل انعقاد مجلس النواب . وقد كتبت عنه صحف ذلك الزمان كلها منوّهة بمناقبه المتعددة، وقد كتب عنه أشهر مثقفي ومبديي تلك الفترة مثل طه حسين والعقاد والرافعي وهيكل والمازني ، ويبدو أن ترجمة طاغور قد تزايدت بعد هذه الزيارات، فهناك ترجمة لديوان البستاني لمحمد حبيب شعراً في العام ١٩٤٠، ثم تلاه الأب يوحنا قمير في العام ١٩٤٨، ولم يتوقف هذا المترجم عن الاهتمام بطاغور، فقد ترجم له أيضاً كتاب بعنوان " طاغور مسرح وشعر" وصدر عام ١٩٦٧ بمناسبة مرور ٢٥ سنة على وفاته ، وفي هذا الكتاب يقول المترجم أنه وحتى العام ١٩٦٧ فقد صدر عن الشاعر الهندي ١٥ كتاباً مترجماً ووضع فيه ٥٥ دراسات . ويذكر الدكتور يحيى الخشاب في العام ١٩٦١ أن الترجمات لأعمال طاغور تمثلت في ترجمات طاهر الجبلاوي الذي ترجم كتاب " الهلال " و " هدية المحب " و " تحقيق الحياة"، كما ظهرت ترجمات أخرى لمحمد بدر الدين خليل ومحمد عبد الغفور العطار الذي ترجم " الزنابق الحمر " وكذلك ترجم بديع حقي من لبنان " جني الثمار " . وفي العام ١٩٣٢، زار طاغور العراق وقد لقي حفاوة عظيمة والتقى بشعراء العراق المعروفين في ذلك الوقت منهم الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣-١٩٣٦) ومعروف الرصافي (١٨٧٥-١٩٤٥) من الواضح إذن أن العالم العربي تعرف على طاغور مبكراً، وأنهم قرأوه أولاً بالإنجليزية ثم بالعربية، وأنهم احتفلوا به احتفالاً خاصاً بين الحربين العالميتين.

مرحلة القراءات المتعددة :

بعد ثورة الضباط الاحرار في مصر عام ١٩٥٢، وبعد نجاح عدد من حركات التحرر العربية في التخلص من الاحتلال فقد دخلت الاقطار العربية مرحلة مختلفة من التحديات السياسية والثقافية والفكرية، وكان لنجاح البرجوازيات الوطنية والطغم العسكرية في طرد المحتل أثر كبير على تبني أفكار الاشتراكية والقومية بشكل خاص، ولهذا فقد بهت الإهتمام بأعمال طاغور وعوالمه التي لم تكن تلبى حاجات المثقفين والمبدعين العرب الذين اندفعوا إلى التوفيق ما بين الافكار المتعارضة، ما بين الإشتراكية والإسلام والقومية والقطرية، إلى آخر التحديات والانشغالات في تلك الفترة، لكن وبالرغم من ذلك، فإن الإهتمام بطاغور تجدد مرة أخرى بعد ميلاد حركة عدم الإنحياز وظهور الهند على ساحة الاحداث العالمية وبالأخص في المنطقة العربية، وذلك من خلال العلاقة الخاصة التي نسجها الزعيم المصري جمال عبد الناصر والزعيم الهندي نهرو . أدعي هنا أن اهتمام المثقفين العرب مرة أخرى بإرث وثقافة

الهند كانت نتيجة لذلك النجاح الباهر الذي حققه الهنود في حصولهم على الاستقلال، وارتسام صورة تكاد تكون أسطورية للزعيم الهندي غاندي وأسلوبه المعجز في المقاومة السلبية، بكلمات أخرى، فإن الشخصيات الباهرة التي تبدها تلك البلاد البعيدة لا يمكن لاحد في العالم ان يتجاهلها، فإذا أضيف إلى ذلك ظهور زعيم شعبي محبوب مثل عبد الناصر الذي مثل مع نهرو أملاً للعالم الثالث في مواجهة الاحتكار والاحتلال الغربي، فقد اتجه الكثيرون الى الكتابة عن طاغور باعتباره إحدى عجائب الهند وأساطيرها، خاصة وأن هناك معرفة سابقة بهذا المبدع الكبير .

ولذا السبب رأينا أن سنوات الخمسينات والستينات شهدت ترجمات ودراسات حول الشاعر تميزت بالعمق والنقاش والجدل مع الشاعر ومنجزاته، ففي العام ١٩٥٨ صدرت ترجمة لديوان "سلة الفاكهة" للأب أيوب فلوح، وفي ذات العام صدرت ترجمة لكل من جيتانجالي وجني الثمار والبستاني والهلل وشيترا لبيدح حقي . وفي العام ١٩٦١ أصدر الناقد المصري محمد شكري عياد دراسته القيمة " طاغور ، شاعر الحب والسلام " ، وفي ذات العام أيضاً، صدر كتاب " طاغور في الذكرى المئوية لميلاده " إلى ذلك هناك الناقد عبد العزيز الزكي الذي كتب كثيراً عن طاغور باعتباره الفنان صاحب الرؤية الصوفية .

وفي العام ١٩٦٦ صدرت ترجمة لكتاب كريشنا كريبلاني بقلم حسني فريز وكان بعنوان "طاغور، عبقرية الهمت الشرق والغرب" ، وقد كتب المترجم المذكور في مقدمة الكتاب أنه يترجم هذا الكتاب لأن "ما أعرفه عن طاغور غير مقنع ولا مرض، وإنما هي نتف لا تمثل الشاعر، الروائي، القاص، المسرحي، الموسيقي، الرسام والعالم الاجتماعي" ، وفي العالم ١٩٦٧ أيضاً صدرت ترجمات مختارة للأب يوحنا قمير بعنوان " طاغور، مسرح وشعر " وقد تمت الإشارة إليه في الهوامش.

وعلى المترجم ترجمته هذه بالقول " ومن أخرى من طاغور باكورة المتعانت يفتنك بشعره وفنه مجسداً أغنى ما في الهند، راشفا من الغرب ما طاق، واعياً رغم كل الظروف إلى لقاء الشرق والغرب في عناق إنساني عميق " .

يمكن القول أن فترة الخمسينات والستينات من القرن الماضي هي الفترة الأكثر خصوبة في فهم طاغور والتعمق في عامله وإنجازاته الفكرية والفنية معاً، ولدينا دليل على ما نقول من خلال الكتاب الذي صدر عام ١٩٦١ وضم عدداً من المقالات والدراسات حول طاغور، وكانت بمناسبة الاحتفال بالمتوية الاولى لميلاده . ففي هذا الكتاب يتقدم المثقفون والمبدعون العرب خطوة أخرى للتعرف على طاغور آخر، وليست تلك الصورة التي قدم فيها سابقاً باعتباره شاعر الحب والسلام والتصوف . فمثلاً يكتب مير بصري من العراق أن طاغور " رمى في القول والعمل إلى تهذيب الشوائب العالقة بالبرهمية التي يدين بها القسم الأكبر من الهنود، ورفع مستوى الحياة الشعبية وإنقاذها مما يخيم عليها من جهل وخمول، وازالة الفوارق التي تباعد بين الطبقات الهندية فتجور على ادناها وتُشَلُّ الحياة القومية والوطنية " . إن تركيز الكاتب بصيري على فكرة الفوارق الطبقية والعدالة الاجتماعية ومحاربة الفقر والجهل هي

مصطلحات ومفردات كانت ذات شعبية ووقع خاص في سنوات الستينات من القرن الماضي، وذلك بتأثير الفكر الإشتراكي والماركسي الذي كان في أوجه في العالم العربي . وقد حاول الكاتب أيضا أن يرى في طاغور مصلاً دينياً " يطلق دين أباه وأجداده من قيود التنافر والجحود، وأن ينزع به نزعة جديدة تفسح لأتباعه مجال الأخذ بالحضارة العلمية الحديثة وتسمو بهم في ذات الوقت إلى مراقبي التأمل الروحي والانطلاق الفكري " ، برأبي أيضا فإن هذا الكلام لا يختلف إطلاقاً عن جدالات المثقفين العرب في تلك الفترة، حيث واجهوا معضلة إيجاد صياغة فكرية للتقدم، وأن الاشتراكية لا تخالف الإسلام بل هي ترجمة له، إلى الدرجة التي رفع فيها شعار "الاشتراكية العربية" في صياغة متسعة ومرتبكة -رماً- للتوفيق ما بين القديم والجديد وبين الأصالة والمعاصرة .

اما سيد قطب من مصر فيكتب عن طاغور على طريقته التذوقية والانطباعية التي استخدمها حتى في تفسيره للقران الكريم ما يلي "وبين يدي ديوانه الصغير الذي سماه البستاني وأطلق فيه خمسا وثمانين اغنية سماوية ساذجة عميقة وهي في الإنكليزية اشبه شيئ بلغة الاطفال، مع ارتفاع ما تحوي من لمسات شعورية ويبدو طاغور في هذا الديوان طفلاً إلهياً، يلثغ لثغة الاطفال ويسمو الى السماوات العلى " .

ولا يكتفي سيد قطب بهذه الأوصاف بل يزيد عليها أن القيمة الفنية لأشعار طاغور تتمثل في "أن التجارب الشعورية الانسانية فيه كما هي، تجارب وخفقات وومضات، بحيث يخيل إليك أنها لحظات حياة تعاش وفق سليقة داخلية، وهواتف مكونة وخلجات مضمرة، لا وفق تنسيق فني وتدبير فكري وتصميم تعبيرى " .

نلاحظ هنا طريقة تعبير قطب في النقد القائمة على الاحساس الأول والانطباع الاول، أي أن قطب يعتمد ذوقه أولاً في الحكم على النص، ومن هنا نرى ذلك الإسراف في المفردات المتماثلة التي يحتاج كل واحد منها للشرح والايضاح . وقطب يصر على أن شعر طاغور يخلو من " التركيز أو الخضوع للوعي الذهني " ولهذا السبب، فإن قطب يعتقد أن اشعار طاغور التي تزخر " بالشعور الانساني الطليق الشفيف، لا تقيدده حدود البيئة، ولا ملابسات المكان والزمان، ولا تغسله الفكرة الذهنية، ولا الحواجز الحسية عندئذ تطعم بتلك الصوفية الهندية السمحة، في أرفع وانظف مثلها " .

ويكتب عبد الحميد فرحات عن طاغور أيضا أنه عمل طيلة حياته من أجل " فكرة العالمية " ويقارن الكاتب بين الفكرة العالمية التي دعا اليها الفيلسوف الانكليزي برتراند راسل والمتمثلة في قيام حكومة عالمية ، وبين دعوة طاغور للعالمية والمتمثلة في " عالمية شمولية للأفراد متضمنه لهم، شمولاً ناعماً رقيقاً حساساً يزيه الحب والتسامح والتضحية في إطار من الاقتناع التام " .

وتقوم فكرة العالمية لدى طاغور - حسب الكاتب- على أركان منها الحب، فالحب عند طاغور هو " الفرس الابيض الطيب " ، هذا الحب هو الذي يحدث الالتزام الذاتي الفردي باعتباره الخطوة الاولى نحو المواطنة العالمية ، "ويستتبع أسلوب الحب هذا في التفكير أن يكون السلوك الإنساني بعيداً عن السقوط أو عبداً للمؤثرات الحضارية المختلفة " .

ويبدو أن الكاتب أحس بأنه يبالغ كثيرا في قراءة طاغور بهذه الطريقة، فزاه يقول " لقد كانت دعوة طاغور الى الإنسان العالمي رد فعل طبيعي لظروف العالم الحالية، ففي الوقت الذي مزقت القوميات أوروبا، جاء طاغور وأعلن أن فوق هذه القوميات وأشرف منها الانسان الفرد، وهو عنده شبه مقدس " ، لم يستطع الكاتب التخلص من الانبهار بشخصية الشاعر الهندي حتى عندما أراد أن يخفض قليلا من مبالغاته، ويخلص الكاتب إلى أن طاغور " فيلسوف ومذهبه يسع العالم كله، أرضه العقل، وسمائه الروح، والإنسان في ضوء هذه الفلسفة هو الموضوع والوسيلة والهدف " .

ومن مصر يكتب الشاعر الناقد عبد الرحمن شلش حول قصص طاغور فيقول أنها كانت "مستمدة من مادة معظمها من واقع الحياة في عصره، فلم يكن يميل إلى إعطاء صورة خيالية لأعماله، بل كانت مشاعره وواقعيته ورؤاه واضحة فيها" ، مسألة الواقعية وإلتزام الفنان كانت إحدى القضايا التي شغلت بال المثقفين والمبدعين العرب في الخمسينات والستينات من القرن الماضي وذلك بتأثير الفلسفتين الماركسية والوجودية على حد سواء، ولهذا نجد الناقد شلش يشير في تفسير واقعية طاغور إلى " أن الأديب لا يأتي من فراغ وإنما هو وليد عصره وقد كان طاغور وليدا للعصر الذي عاش فيه، فهو نتاج بيئته ومنها استمد موضوعاته وعبر عن همومها وطموحاتها، ولا جديد بلا قديم. وفي تصورنا أن طاغور كان امتدادا جديدا للسابقين من شعراء وطنه وأدبائه، وكانت ثقته كبيرة بالتراث الهندي الأصيل الذي يمثل رافدا من روافد الحضارة الهندية، ولهذا جعل من نفسه صورة لأمة عريقة" .

ويكتب الناقد يحيى الخشاب من مصر أن اهتمام العرب بطاغور كان نتيجة أن الامة العربية " كانت تتطلع إلى فلسفة جديدة تنهض بالروح المعنوية فيها" وعلى طريقة هذا الناقد بالمبالغات فهو يعتقد أن طاغور " كان واحدا من رجال الفكر العالميين الذي نستطيع القول أنه خلف في العصر الحديث أرسطو في العصر القديم" ولا نعلم ولم يقل الناقد لنا أيضا ما هو وجه الشبه بين الرجلين إلا في تشابههما في افتتاح مدرستين لتعليم الناشئة، وحاول الناقد أيضا أن يجد صلة بين طاغور والثقافة الاسلامية، فحفر تحت إمكانية تأثر طاغور بالمتصوفين حافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي، إذ يمكن للمرء أن يجد " سلبية الشيرازي وإيجابية الرومي في شعر طاغور على حد سواء" ولهذا لم يكن من المستغرب أن يقول الناقد في اخر مقاله " رحم الله طاغور وافاد الناس من حكمه " على الطريقة الإسلامية تماما، ويكتب الدكتور محمد فام عن علاقة طاغور بالغرب وعلاقة الغرب به، فيصور طاغور على أنه رجل الأسفار والقراءة والتعلم والدعوة إلى العلم، إلا أن طاغور كان نافذ البصر والبصيرة بحيث اكتشف بؤس الغرب وتوحشه واحتقاره للناس وتقديسه للمادة، ويقتبس الناقد قول طاغور في كلية فيزفا بهارتي " لكي نسعى إلى الكمال، يجب أن نكون بدائيين في حيويتنا، متحضرين في عقولنا وأفكارنا " ، ويحاول الناقد أن يصور طاغور رجلا سياسياً يفهم التوازنات الدولية راغباً في حماية بلاده من تأثير القوى العالمية التي لم يعد بالإمكان تجاهلها، مما قد يحرم بلاده قدرتها على حل مشكلاتها، دون أن يعني ذلك عدم تقبل

الهند لأفكاره القادمة من الأوطان الأخرى . ويؤكد الناقد أن طاغور كان صاحب منهج وسطي يجمع ويوحد بين المصالح الوطنية وبين المصالح الدولية، وهو منهج حاول شرحه وتفصيله في العديد من أعماله الشعرية كما في قصيدة " البيت والعالم " التي نشرها عام ١٩١٨. هل كانت الوسطية التي تحدث عنها الناقد فام هي ترجمة أخرى لكتلة عدم الانحياز التي بلغت ذروتها في الستينات !؟.

ويكتب الناقد علي شلش من مصر أيضا ان طاغور هو " أكثر الشعراء الاسيويين المحذثين قبولا عند المثقفين العرب " . ويعزو الناقد ذلك إلى أن شعر طاغور يشبه في معانيه ومضامينه الشعر العربي من حيث " سمو المعاني وعفة الخيال وعمق الفكرة " .

وينفي الناقد أية صفة لطاغور سوى أنه شاعر فقط، فهو لم يتحدث سوى عن الحب، والحب لدى طاغور - حسب الناقد- هو حب يتجاوز حدود الزمان والمكان المرئي واللامرئي والطبيعي وما وراء الطبيعي، والحب حسب طاغور هو الحكمة أيضا، ولهذا يلخص الناقد رأيه في طاغور وشعره بما يلي "طاغور عندي شاعر الحب والحكمة قبل أن يكون شاعر السلام والإنسانية " وقد استعان الناقد المذكور بكثير من أشعار ومسرحيات ورسائل الشاعر للتدليل على ادعاءاته .

أما الناقد المصري المعروف محمد شكري عياد، فيعتبر من أكثر وأهم النقاد العرب الذين اهتموا بطاغور وكتبوا عنه في فترات مختلفة . وبرأيي فإن ما كتبه هذا الناقد يعتبر من أنضج وأعمق الدراسات حول طاغور، إذ يقول في دراسته " نظرية النقد عند طاغور " أن هناك صعوبة في تحديد نظرية النقد لدى الشاعر لأنها مفرقة في عدد من كتبه ومحاضراته، ولا تأتي الصعوبة من هنا فقط بل " تأتي من منهج طاغور الفكري نفسه، فطاغور يكره التحديد، ومع أن ما كتبه عن نظرية النقد ليس بالشيء القليل، فإننا لانقع فيه على تعريف الفن، بل لا نستطيع أن نستخلص منه تعريفا ونحن مطمئنون، لأننا بذلك نكون قد وضعنا على تفكيره إطاراً من صنعنا نحن، ولو شاء طاغور أن يضع مثل هذا الإطار لتحديد فكرته لفاعل، ولكنه تجنب ذلك عامداً " . ولكن الناقد - رغم ذلك - يحاول أن يقدم عرضاً لأفكار الشاعر يلخصها بالقول إن طاغور يعتمد القياس والتشبيه أكثر مما يعتمد على التعريف، كما أنه لا يلزم نفسه حدود الاستدلال كما يفعل معظم الباحثين بل يعتمد على الذوق أو البديهة، ولهذا، يخلص الناقد إلى استنتاج مفاده أن " تفكير طاغور في المسائل التي تندرج تحت نظرية النقد تفكير شاعر " ،

وينتهي الناقد عياد إلى تلخيص أخير لرؤية طاغور الفنية بالقول أن الفن عند طاغور " تعبير عن الانسجام بين اللامحدود والمحدود" معتمداً في ذلك على ما جاء على لسان طاغور نفسه عندما قال عن مسرحيته " انتقام الطبيعة "، إن موضوعها هو الموضوع الذي تدور حوله جميع كتاباتي : لذة الوصول إلى اللامحدود في المحدود". ولكن الناقد محمد شكري عياد لم ينته على ما يبدو من الكتابة عن طاغور، فزاه يعود للكتابة عنه بعد ذلك بثلاثة عشر عاما وسنذكر ذلك في حينه أيضاً .

ويكتب محمد كامل النحاس من مصر عن طاغور المرئي، فيشير إلى آراء الشاعر وأفكاره التي طبقتها

في المدرسة التي أنشأها في الغابة وحظيت بسمعة طيبة، واستعرض الكاتب عددا من افكار طاغور في التربية كمنح الحرية للطلاب في التعرف والتعلم من خلال التجربة الشخصية ونبذ التعصب الديني أو القومي والعزوف عن مناهج التعليم المأخوذة عن الغرب وتعليم اللغة القومية بديلا عن اللغات الاجنبية - دون أن يقصد طاغور من وراء ذلك الإنغلاق بل كان يقصد من وراء ذلك عدم السماح للتربية الأجنبية أن تملأ العقل القومي كله وبذلك يقتل الفرص الخلاقة المبتكرة لقوى فكرية جديدة.

ويكتب فؤاد جبور من لبنان أن طاغور كان "وطنياً متحمساً لبلاده ولكن شعوره الوطني كان في الواقع شعوره الإنساني مطبقاً على الهند". وبهذا يحاول الكاتب أن يجد نقطة التوازن بين عالمية طاغور و محليته، وبالنسبة لفلسفة طاغور فهي "من صميم الفلسفة الهندية" ويعتبره "عبقرياً من عبقریات الشرق". ومن لبنان أيضاً يكتب ريمون فرنسيس بعد أن يبدي إعجابه الشديد بالشاعر أن "عدد وافرا من قصائد طاغور تدور حول أفكار محددة، حتى ليصيب القارئ شيئاً من الملل" وهذا اول من يكتب شيئاً كهذا.

ومن العراق يكتب حارث طه الراوي محاولاً تصوير طاغور على أنه شخصية قومية ثائرة على الإحتلال الإنكليزي، وأنه أول مفكر شرقي نقل للغرب فضائل الشرق. ويصف الكاتب زيارة طاغور للعراق عام ١٩٣٢ وصفاً دقيقاً، وقد اسبغ شعراء العراق ومثقفوه الكثير من الصفات والألقاب على طاغور مثل "شاعر الشرق العظيم و ضيف العراق العظيم" و"رسول الثقافة وشاعر الحكمة والجمال" و"الفيلسوف الفذ وحامل علم الانسانية وراية العدل وممثل الروح السامي" و"أمير البيان العالمي" ويقتبس الكاتب جزءاً من خطبة ألقاها طاغور أمام حشد من النخب العراقية قال فيها "لقد قدمت اليكم لأناشدكم الله أن نتحد معاً لنكافح خطر الشكوك المتبادلة، لنكافح نفاق السياسة الدولية الذي يمزق قلب حياة البشر المدنية، ففي ألمع عصور تاريخكم المجيد بسطت جزيرة العرب سيادتها على نصف العالم في الشرق وفي الغرب وحتى الآن لا يزال نفوذها المستحوذ على الهند بادياً في حياتنا الروحية والعقلية نظراً لوجود جانب عظيم من سكان البلاد المسلمين في وسطنا"

ومن سوريا يكتب الدكتور بديع الكسم انه فيلسوف بامتياز، وعلى الرغم من أن طاغور قال خلال زيارته للقاهرة عام ١٩٢٦ أنه ليس فيلسوفاً، إلا أن الدكتور الكسم يؤكد أن طاغور "شاعر وفيلسوف ونبي في وقت واحد" وذلك اعتماداً على "أن الشاعر في الثقافة الهندية ليس محصوراً في التعبير الجميل" حسب الكاتب المذكور ايضاً، ولكنه رغم ذلك يعارض القائلين بأن طاغور فيلسوف قبل كل شيء، فهو- أي طاغور- وإن تقاطع مع هيجل بالقول أن " الطبيعة وعقلي هما عقل واحد"، أو إن تقاطع مع بركلي بالقول بالعقل الكلي، أو إن تقاطع مع برجسون بالقول أن المعرفة العقلية لا تدرك الموجود الكامل، أو حتى ذلك التطابق الكامل بين الشاعر وبين نظريات داروين التطورية، فكل ذلك لا يعني أن طاغور اعتمد العلم أو المنطق في بناء فلسفة، بل اعتمد التجربة الشخصية، واعتبر الدكتور الكسم أن فلسفة طاغور لُخصت أو عُرضت في كتاب "سادهانا" وتتمثل في "تحرر النفس الانسانية من قيودها لتنتقل نحو كمالها وتبلغ مستقرها في أحضان الألوهية".

ويكتب الدكتور بديع حقي من لبنان عن طاغور "أن شعره يتعدى فيه اللفظ والنغم والمعنى إلى كونه رسالة تماثل في نبهها رسالة المفكرين المصلحين العظام"، ويعتبر الدكتور حقي من ألمع المترجمين العرب الذين نقلوا إبداعات طاغور إلى العربية، وقد طبعت الترجمات التي أنجزها عدة طبعات في عدة بلدان عربية، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، وتكتب نجاة قصاب حسن عن طاغور باعتباره الفنان الشامل، فهو الموسيقي والقاص والكاتب الساخر والرسام والمسرحي، وتختتم الكاتبة مقالها بالقول "ربما كان طاغور اكمل نموذج للفنان في تاريخ البشرية، لأنه كان انساناً كاملاً". وهي حالة من الاستسلام الكامل أمام شخصية الشاعر، وهي بذلك تلغي كل إمكانية لمحاولة نقده او التحديق في أعماله .

ويعود الكاتب أحمد فارس في مقالته إلى التأكيد على ثورية طاغور ووقوفه أمام الإستعمار الإنجليزي، ويبدو ان الرغبة في جعل طاغور ثورياً لم تكن بعيدة عن المزاج العام في العالم العربي في الخمسينات والستينات حيث كان الصراع على أشده مع المستعمر الإنجليزي والفرنسي في عدد من الأقطار العربية، وهكذا يريد أحمد فارس أن يرى في الشاعر الهندي "أنه كان يقف إلى جانب الشعب المناضل من أجل الحرية ويرفع صوته عالياً مندداً بالعسف والإحتلال"، وحاو الكاتبة أن يقرأ أعمال طاغور كلها من نظرة الدعوة إلى الثورة على المستعمر وذلك من خلال الدعوة إلى تأكيد قيمة الانسان والحياة الإيجابية ومحاربة الذل والهوان والبؤس الذي يعانيه الشعب الهندي، بل وأكثر من ذلك، فقد أشار الكاتب إلى أن "أفكار طاغور الواقعية ذات محتوى اجتماعي صرف"، حتى بلغ الأمر بالكاتب أن يقول "في شعر طاغور الوطني حدثت تغيرات جذرية مصدرها الأساسي خيبة أمله في مبدأ اللاعنف، لذلك نرى في بعض الأحيان صوراً شعرية هائجة وأحلاماً تميل إلى النزعة الرومانسية بغية تحطيم الباطل والعنف والشر من على وجه الأرض، كما في قصيدة فصول السنة".

تصوير طاغور واعتباره ابناً أو إبداعاً من الشرق، كان محور مقال عبد اللطيف شراره الذي قال "أن طاغور يمثل الروح الشرقي في أروع ما لديه من حس وفكر، سواء فيما عبر منه وما حضر".

أما حليم دموس فقد استوقفته قصيدة "الأم وطفلها" فترجمها عن الفرنسية نثراً ونشرها في جريدة "فلسطين" وطلب عن الشعراء العرب أن يعيدوا كتابتها شعراً، ومن الجديد ذكره بهذه المناسبة، أن هذه القصيدة بالذات، استوقفت كثيراً ممن ترجموها، مثل محمد شاعر عياد، الذي ترجمها بعنوان "البداية" وكذلك بديع حقي الذي ترجمها بذات العنوان - على فرق كبير في الترجمة - ففي ترجمة محمد شاعر عياد نقراً قول الأم على النحو التالي: "أنت محبوب السماء، توأم نور الصباح، طفوت على تيار حياة العالم، ثم رسوت على قلبي، حين انظر إلى وجهك يغمري سر: يا من تنتمي للكل أصبحت لي مخافة أن أضمك إلى قلبي. أي سحر صاد كنز العالم في ذراعي النحيلتين".

أما ترجمة بديع حقي فجاء فيها: "أنت يا حبيب السماء الأول، أنت يا توأم شعاع الصباح، لقد جرفك تيار حياة الكون حتى رسوت أخيراً في قلبي".

وبينما كنت أرامق وجهك، والغموض يسربلني، أضحيت انت، يا من تخص الجميع، ملكاً لي. وخشية أن أضيعك، فقد جذبتك وشددتك إلى صدري، ترى أي سحر قد وهب كنز الدنيا لذراعي النحيلتين ". لابد هنا من ملاحظة الفرق في عدوبة اللغة ودقتها وتأثيرها، وهذا ما يلاحظه الباحث في معظم الترجمات لأعمال طاغور على امتداد مئة عام تقريباً، كانت ترجمة طاغور إلى العربية عن الفرنسية والإنكليزية تغري بذلك للسهولة أو للسحر أو لكليهما، كل شيء جازئ أمام شاعر من هذا الحجم. ولنقرأ مقطعاً ثالثاً لمترجم آخر هو محمد طاهر الجبلاوي وكيف يترجم قصيدة "البداية":

سأل الطفل أمه ،من أين أتيت يا أمي ؟

ومن أي مكان التقطتني يداك ؟

فضمته أمه إلى صدرها، وأجابته بين الصياح والضحك

لقد كنت يا بني العزيز أمنية تطوف بقلبي

كنت تتمثل لي في اللعب التي ألهو بها وأنا طفلة صغيرة

وكانت الصور التي أضعها بالظمي لآلهتي كل صباح

صورتك أرسمها ثم أمحوها

كنت كنزاً مدخراً لي مع آلهة المنزل

وفي عبادتي لها كنت أعبدك

كنت تعيش في كل امالي وحي

وفي حياتي وحياة أمي

ولقد ربيت في أحضان تلك الروح

التي تحكم فينا منذ اجيال طويلة .

فإذا ما نظرت إليك قهرتني تلك الإسرار الخفية التي جعلتني لي وأنت متصل الوشائج بكل ما في الحياة

واني لأضمك إلى صدري لشدة خوفاً عليك، أي سحر ذلك الذي وضع بين ذراعي الرقيقتين

كنز الحياة الثمين

لابد من ملاحظة الفروق الكبيرة بين الترجمة الثالثة والترجمتين السابقتين، تبدو الترجمة الاخيرة اكثر أمانة واقتراباً من عالم طاغور ولغته ومفرداته، لماذا لم يذكر بديع حقي مثلاً وهو مترجم مشهود له

"آلهة المنزل" و"تلك الروح التي تحكم فينا منذ اجبال طويلة"، هل حاول المترجم العربي- المسلم والمسيحي على حد سواء - أن يلتفوا على الإشارة إلى رموز ودلالات دينية معينة بسبب الحرج أو بسبب الرغبة في تبسيط القصيدة أم بسبب أن الترجمة عادة ما تكون خيانة للنص؟!

المثال السابق يعطينا فكرة كافية عن الفروق في الترجمات التي بدأت منذ العام ١٩٢٥ وحتى الآن، فهناك اختلافات حتى في عناوين الدواوين وعناوين القصائد وترتيبها ومضامينها، هذا بالإضافة إلى أناقة اللغة ودقتها وقدرتها على التعبير عن معنى القصيدة الأصلي، وقد رأينا الاختلافات الكبيرة في قصيدة واحدة، وبالنظر إلى الترجمات المختلفة، يلاحظ الباحث أن كل مترجم يبدأ من نقطة الصفر تماماً، أي أنه لا يعود إلى الترجمات السابقة ولا يستفيد منها أو لا يشير إلى استفادته من أي ترجمة سابقة، لنأخذ مثلاً ترجمة أخيرة لطاغور قام بها الدكتور عبد الواحد لؤلؤة و نشرت عام ١٩٩٥، فهو يقول في مقدمته بما يشبه الإعتاف "ثمة مجازات وإشارات إلى مسائل ثقافية أو دينية أو فلسفية لا بد من الالتفاف عليها، والمترجمون خونة، ولكنني حاولت جهدي أن أتملص من هذه التهمة ولو أنني أخفيت سطرا من هنا أو هناك، وتجاوزت قصيدة كاملة لأن ما فيها قد يخدش الشعور الديني عند المسلم"

وقد يكون هذا أول إعتاف بالحساسية في ترجمة طاغور بهذه الطريقة، والمهم هنا أن الدكتور عبد الواحد لم يشير إلى ما سبقه من ترجمات أغفلت أو أسقطت أو إلتقت على ما قد يجرح أو يجرح، أسلوب الإلتفاف أو التغطية قد يفسر جزئياً التسامح والتفهم والانبهار بشخصية طاغور وأعماله، هذا بالإضافة إلى رغبة البعض في تصدير الشاعر باعتباره قد أدرك حقيقة الوجود والإله الازلي الواحد، ومن يتابع دراسات الناقد عبد العزيز الزكي ومحمد شكري عياد سيلحظ تركيز الناقد على إيمان الشاعر الهندي بمسألة "وحدة الوجود" وهي مسألة تجد لها جذوراً في الفلسفة الإسلامية. الاختلافات في ترجمات طاغور الشعرية قد تفهم من خلال الفروق الفردية بين المترجمين، ومدى اتقانهم للغة التي نقلوا منها، ومن خلال مدى حساسيتهم للجملية الشعرية وتذوقهم لها، وكذلك من خلال مرجعياتهم الدينية ودور النشر التي نشرت لهم، وكذلك الأنظمة السياسية والاجتماعية التي يعيشون فيها، أما الإختلافات في قراءة طاغور التي كانت في أغلبها تتسم بالإنطباعية والسرعة والانتقائية وغياب النظرة الكلية الشاملة فيعود ذلك برأبي إلي أن قراءة طاغور كانت تختلف أيضاً باختلاف زمان القراءة.

العودة إلى طاغور

يخفت الإهتمام بطاغور بعد الستينات من القرن الماضي، فلا يصدر في السبعينات سوى إعادة الترجمة الهامة والشاملة التي أنجزها بديع حقي، أو بالأحرى، صدرت الطبعة السادسة من تلك الترجمة، وكذلك تصدر دراسة الدكتور محمد شكري عياد - أستاذ اللغة العربية في جامعة القاهرة- على شكل كتيب صغير الحجم في طبعة متواضعة، وفي نهاية السبعينات ينشر الناقد عبد العزيز الزكي دراسته

الهامة عن طاغور في مجلة فكرية رفيعة تصدر في الكويت.

ومع بداية التسعينات يعود الإهتمام بطاغور من جديد، فهذا الكاتب والشاعر والدبلوماسي السعودي عبد الرحمن غازي القصيبي يترجم له مختارات من شعره يضمها أحد كتبه ، وهو يختار من طاغور ما يشبهه، إذ يختار ما وضع عنواناً له هكذا " جولة في أفكار طاغور"، وهذه " الأفكار" التي اختارها تشبه تماماً ما كتبه القصيبي في موضع آخر من ذات الكتاب تحت عنوان " شرارات"، فظهر المؤلف وكأنه يقلد طاغور ليس إلأ.

وفي أوائل التسعينات أيضاً أصدر الناقد محمد شكري عياد دراسة نقدية شملت نقداً واستعراضاً لأعمال طاغور النثرية والشعرية لم يصف فيها عما كتبه عن طاغور فيما سبق، بل كان ذلك تكراراً لما كتبه منذ العام ١٩٦١ .

وينشر المجمع الثقافي في أبو ظبي ترجمة لكتاب طاغور " ذكرياتي" في منتصف التسعينات ، وقد ظهرت الترجمة بشكل أنيق، وفي ذات السنة يصدر كتاب بعنوان" كتب غيرت الفكر الإنساني" وضمنت دراسة مطولة عن مؤلفات طاغور التي أحدثت تأثيراً كبيراً على الأدب في الشرق والغرب ، وقد استعرض مؤلف الكتاب حياة طاغور وأعماله وشخصيته وعلاقاته وأسفاره وتأثيره الأدبي والفني والسياسي، ولا ننسى أيضاً ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة لبعض أشعار طاغور وقد أشرنا إليه فيما سبق. وفي نهاية التسعينات، تنشر مجلة " وجهات نظر" في القاهرة عرضاً لكتاب المفكر الهندي أمارثيا صن حول طاغور والذي كان بعنوان " طاغور الصوفي العظيم ابن الشرق"

ولم يتوقف الإهتمام بطاغور في الألفية الثالثة، ففي العام ٢٠٠٠، يصدر المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة أعمال محمد شكري عياد عن طاغور مجتمعة تحت عنوان " في عالم طاغور، طاغور شاعر الحب والسلام، البيت والعالم" وفي ذات العام في بيروت تصدر ترجمة بديع حقي لديوان " جني الثمار" بعنوان " سلة الفاكهة" ومراجعة جوزيف إلياس . وفي دمشق، تصدر ترجمة لرواية " القصيدة الأخيرة " حققها فريد الشحف ونائر زين الدين . وفي بيروت يصدر كتاب المؤرخ الأردني علي المحافظة " شخصيات من التاريخ" ويستعرض المؤلف سيرة طاغور باعتباره شخصية تاريخية ذات تأثير كبير .

وفي دمشق أيضاً يصدر كتاب ضخم حرره محمد سعيد الطريحي وكان بعنوان " طاغور شاعر الهند الملهم"، جمع فيه مقالات ودراسات كتبها مثقفون ومبدعون عرب في الإحتفالية الخاصة بمرور مئة عام على ميلاد طاغور، وأضاف المحرر الكثير من الصور النادرة للشاعر وعائلته وأعماله المسرحية .

ما يميز الترجمات في هذه المرحلة الإهتمام بدقة النص وتطابقه مع الأصل الإنجليزي أو البنغالي، بالإضافة إلى المترجم هناك أيضاً محقق أو مراجع الترجمة، كما أن الترجمات في هذه المرحلة تتميز بأنها منتقاة أكثر فأكثر، فقد اختفت المختارات أو المقتطفات، ورغم تميز هذه المرحلة بقلّة الدراسات النقدية عن طاغور

والإكتفاء بتقديمه للقارئ العربي بشكل استعراضي، إلا أن هذه المرحلة تميزت بنوع من تقديم الدراسات الإجمالية السابقة عنه، وكأن هناك نوعاً من الإكتفاء من الحفر تحت الشاعر وأعماله، إن قيام المجلس الأعلى للثقافة المصري بطباعة أعمال الناقد محمد شكري عياد الكاملة عن طاغور نوع من الإعتراف بأن الحديث عن الشاعر قد توقف إلى حد كبير، بمعنى آخر، لم يعد هناك نقاد كبار يكتبون عن طاغور. غني عن القول أن هموم وقضايا الشعر العربي في السنوات الثلاثين أو الأربعين الماضية كانت أبعد ما يكون عن عوالم طاغور واهتماماته، خاصة وأن العالم العربي دخل مرحلة من التحديات والأزمات الحادة والعييفة على كل المستويات جعلت مكانة الشعر تتراجع إلى حد كبير.

دراسات نقدية إجمالية

ليس هناك من ناقد عربي انشغل بطاغور وأعماله كما فعل الناقد الدكتور محمد شكري عياد، أستاذ الأدب العربي في جامعة القاهرة، ويمكن اعتبار دراساته النقدية عن الشاعر الهندي الدراسات الأكثر عمقاً وشمولاً ومنهجاً علمياً أيضاً. وسنستعرض هنا آراء الناقد في أعمال طاغور التي لم يطرأ عليها تعديل أو تبديل أولاً ولم يتجاوزها ناقد آخر ثانياً، وبالتالي فهي دراسة نقدية إجمالية لم يبن عليها سوى ناقد أو اثنين.

وفي كتابه " طاغور شاعر الحب والسلام " الذي نشر في العام ١٩٦١، وظل يطبع حتى العام ٢٠٠٠ يقول الدكتور محمد شكري عياد أن هذا الكتاب " سيرة أفكار لا سيرة أحداث " وهو بهذا يبني منهجه النقدي في التعرف على عالم طاغور وإبداعاته، فمن خلال فهم البيئة والثقافة والأحداث التي عاش فيها طاغور يمكن فهم توجهاته ومضامينه ومفرداته وحتى مواقفه، بما يدفعنا إلى القول أن المنهج النقدي الذي اتبعه الدكتور قريب جداً من المنهج الاجتماعي، حيث يكون النص الفني ابن بيئته ووليد ثقافته ونتيجة طبيعية للتحديات المحيطة، ولهذا يقدم لنا الناقد تفصيلاً لتاريخ البنغال عامة ولتاريخ أسرة طاغور خاصة، وللديانة البرهمنية وللحركات الإصلاحية السابقة ودور أسرة الشاعر فيها وتأثير الاستعمار الإنكليزي على بلده، وحفر الناقد عميقاً في علاقة طاغور بالنصوص الدينية القديمة واستخلاصاته ورؤاه، ومن خلال هذه العلاقات المتشابكة، يقدم لنا الناقد أعمال طاغور الإبداعية، بحيث يدلنا على أوجه التأثير والتأثير، وتبدو دراسة الدكتور عياد لأعمال طاغور بهذا المفهوم دراسة تطبيقية، فهو يفسر اتجاه طاغور المبكر إلى التخلص من ضغط الموضوعات الدينية المجردة، والانشغال بالبحث الإنساني نتيجة لتأثره بشعراء ألفياشانا الشعبيين من جهة ونتيجة لتأثره بوالده الذي عرف عنه نزاعاته الإصلاحية من جهة أخرى، ومن خلال الربط بين حياة الشاعر وأعماله، يتوصل الناقد إلى أن يضع يده على ما يعتقد أنه تفسير كامل وشامل لأعمال الشاعر كلها، فيقول الناقد " لقد كان طاغور تلميذاً لشعراء ألفياشانا، الذين جعلوا الحب الإنساني طريقاً إلى عبادة المطلق، وقد مضى شاعرنا شوطاً أبعد في عقيدته الإنسانية التي هي في الوقت ذاته حساسيته الشعرية، فالمطلق والجزئي، والمثالي والواقعي، الجوهر والصورة التي

بأخذها هذا الجوهر، يلتقيان دائماً في حسّه بالحياة، ويمتزجان بما يشبه التناغم الموسيقي، وهذا أحد مصادر السهولة العجيبة التي نجدتها في شعره، فليس في روحه ذلك الصراع الذي ينشأ من التناقض بين الواقعي والمثالي في النفس البشرية، ولكن فيها - مكان هذا الصراع - نوعاً من الحنين أو الشوق - بتعبير الصوفية - يربط بين الواقع والمثال، وهو شوق لا يهدأ أبداً ولكنه لا يصل إلى حد العذاب، لأن طرقي الواقع والمثالي يلتقيان ويتناغمان دون أن يفقد أحدهما نفسه في الآخر، لهذا يحب الشاعر الصدى الذي هو واقع وليس بواقع، هذا الجوهر العجيب الذي يحكي كل شيء، وهذا الصدى - هذا الجوهر العجيب - هو نفسه "الهارب" كما سماه في أحد قصائده الناضجة فيما بعد، لأنه لا يلمس ولا يبصر أبداً، وإن كنا نشعر به في كل مكان ونجده في كل شيء. تكاد هذه الفكرة تكون مفتاح أعمال طاغور كلها، أو هذا على الأقل ما يقوله لنا الشاعر نفسه في ذكرياته عن مسرحية الإنتقام "إن الموضوع الذي تدور حوله جميع كتاباتي هو لذة الوصول إلى اللامحدود في المحدود".

وبهذا المفهوم يفسر الدكتور عياد فكرة الصراع في مسرحيات طاغور كلها كما هي حسب المفهوم الغربي، بل يقدم طاغور صراعاً من نوع آخر يتمثل في "حركة ناعمة سائلة تربط المحدود باللامحدود".

بهذه الاستخلاصات التي يقدمها الناقد عياد يبدو وكأنه أنهى كثيراً من الجدل حول طاغور وأسراره، وبرأيي فإن فكرة الناقد حول التناغم بين الواقع والمثال واستبدال الصراع بفكرة السيولة هي أفكار جرى تداولها في الثقافة الإسلامية التي استبدلت فكرة انتهاك العالم بالتشارك معه، واستبدلت فكرة فصل الذات عن الموضوع بإمكانية التلاقي عن طريق الوحي والنص المقدس مع رفض كامل للحلولية . وقد يفسر هذا رغبة بعض المثقفين والمبدعين العرب من المسلمين والمسيحيين اعتبار طاغور مؤمناً "بالله الواحد" ، أو على الأقل عابداً لإله لا يختلف عن الذي تعرفه وتعبده منطقة الشرق الأوسط.

الرؤية النقدية التي يقدمها الدكتور عياد حول طاغور تفسر صوفية الشاعر وفنه وفلسفته واتجاهاته السياسية أيضاً، وبالتالي فإن كل دراسة نقدية بعد ذلك لم تجد بُدأً من العودة إلى ما قاله الدكتور عياد، وهذا ما نجده في دراسة عبد العزيز الزكي الذي نشر أفضل دراساته عن طاغور في العام ١٩٧٧ تحت عنوان "طاغور الفنان" ، ويعتبر هذا الناقد من الذين انشغلوا طويلاً بطاغور وأعماله، ولكن دراسته التي نحن بصدها كانت تلخيصاً نهائياً - برأيي - لكل ما كتبه الناقد من قبل، وفي هذه الدراسة المطولة يقول الكاتب "أن مهمة الفنان الأول هي البحث عن الحقيقة الكامنة في الوجود ثم عرضها في نماذج فنية تكشفها للناس أجمعين" ، وعن تأثير عقيدة وحدة الوجود الهندوسية التي آمن بها طاغور يقول الناقد أن طاغور آمن بها "ليس لمجرد الأخذ عن السلف أو الاستجابة لدعوة فقهاء الدين، بل آمن بها بعد تجربة خاصة بدأت بالشعور بالألفة الفنية بينه وبين الطبيعة والناس، ثم الانبهار بالجمال البادي في الطبيعة والناس، ثم إدراك وجود حقيقة كامنة في مختلف الكائنات تربط بينها وتضمها في وحدة روحية شاملة". ومع احترامنا لما يقول الناقد إلا أن ما اقترحه لا يختلف عن فكرة وحدة الوجود الهندوسية أو حتى عما

جاء به متصوفة الإسلام الذين دعوا وآمنوا بوحدة الوجود، خاصة أن الناقد لم يفسر لنا ماهي " الألفة الفنية" التي تربط بين الطبيعة والناس، وبالمقارنة، فإن ما اقترحه الدكتور عياد عن بحث الشاعر عن اللامحدود من خلال المحدود تبدو أكثر إحكاماً، ولكن الناقد يعود ليجد الفرق، فيقول بعد عدة فقرات أن الشاعر " لم يستطع أن يميز بين موضوع عبادته وموضوع فنه " ، ولا يغفل الناقد " لحظة الكشف" التي يمر بها الشاعر والتي دفعته إلى هذا الموقف ، وحاول الناقد أن يبحث عن طاغور الإصلاحى والمتمرد على التقاليد القديمة استناداً إلى فهم الشاعر الجديد للدين، وكذلك عزوفه عن المشاركة في العمل الوطني الجماهيري " لأن تصادم القوميات يثير الكراهية والفوضى ويدعو لمزيد من العنف " .

ويؤكد الناقد مرة أخرى أن المحور الذي تدور عليه أعمال طاغور الإبداعية ما هو إلا " لإبراز إيمانه العميق بقصيدة وحدة الوجود أساس كيان الدين الهندوكي وأروع ما يقتنيه من معتقدات يعتز بها الهنود، فلا نعجب إذا ما سخر طاغور مختلف مواهبه الفنية لحرق أذكي البخور في محراب عقيدة اتحاد الله والإنسان والكون في وحدة روحية شاملة " ، وهذا المبدأ الحلولي رفضه محمد شكري عياد ونفاه عن طاغور بالقول إن المثلث والواقع يتناغمان ولا يندمجان، ويعود الناقد إلى تكرار هذه الفكرة ويحاول من خلالها تفسير أعمال طاغور كلها، وينتهي إلى القول " ويكثر الشاعر الكلام عن أفكار فلسفية مشابهة تدور حول وحدة الوجود، وقد نجح في أن يضيف للأفكار الصوفية حيوية دافقة وشفافية حية، إلا أن دوره وقف عند هذا الحد، وما انصرف الناس عن شعره إلا بسبب ذلك الملل الذي ألم بهم من رتابة مضمون هذا الشعر وتكرار أفكاره رغم اختلاف صورها وتعدد خيالاته وتجدد صياغتها " .

استخلاصات :

يمكن القول بعد هذا كله أن عدد الترجمات العربية لأعمال طاغور المختلفة كان غير كافٍ إطلاقاً، هذا بالإضافة إلى كونها اجتهادات شخصية ومنفردة ومنعزلة بعضها عن البعض الآخر، كما أن هذه الترجمات تميزت بالاختلافات و الإنتقائية والتصرف الكبير للمترجم، وبدا أن الترجمات لم تتراكم ولم تعتمد على بعضها البعض، إلى ذلك ، فإن الدراسات المعمقة والمنهجية كانت قليلة بصورة لافتة، واكتفت أغلب الكتابات بوصف الشاعر أنه " عبقرى من الشرق" أو " شاعر صوفى " أو " رومانسى" وقد تأثرت قراءته باختلاف الفترة التي درس فيها، وقد انتهى الاهتمام الفني بالشاعر وشعره بسبب تجاوز الأحداث التاريخية لعالمه ومقارباته، أما تأثيره الكبير على الشعر والشعراء في العالم العربي فقد كان ما بين الحربين العالميتين في القرن الماضي، ولكن، ورغم ذلك، إلا أن اسمه وأسطورته ما تزال حاضرة في عالمنا العربي، ويشهد على ذلك صدور ترجمة هنا أو هناك لأحد أعماله، أو ورود اسمه أو الإحالة إلى إحدى قصائده في قصيدة لشاعر هنا أو هناك. يقول الشاعر الفلسطيني المعروف عالمياً محمود درويش في إحدى قصائده التي وردت في ديوان " لماذا تركت الحصان وحيداً " الذي نشره في

منتصف التسعينات:

عقد لإحدى فقيرات طاغور

تدوسه عربات الأمير الوسيم

وذلك في إحالة لقصيدة طاغور وردت في ديوان " البستاني" يقول فيها :

نزعتُ البرقعَ عن وجهي، قطعْتُ سلسلَةَ العقيق من عنقي ورميتها في طريقه

لماذا تنظرين إليّ وتتعجبين يا أمي؟!

أنا أعرف أنه لم يلتقط سلسلتي، أنا أعرف أنها تحطمت تحت عجلاته وتركت بقعة حمراء على التراب،

ولا أحد يعرف لماذا كانت هديتي ولا لمن؟! .

الهوامش:

(١) قررت المناهج التربوية في لبنان سنة ١٩٩٧ اختيار ديوان " جني الثمار" لطاغور للسنة الثالثة الثانوية وعللت ذلك بالقول أنها اختارت هذا الديوان " لتنمية ثقافة المتعلم الأدبية بالتعرف إلى نمذح من روائع الأدب العالمي ذات النزعة الإنسانية"، طاغور، جني الثمار، ترجمة بديع حقي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢٠٠٠، ص٥. كما ترجمت وزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة أي " مصر وسوريا أيام الوحدة بين أعوام (١٩٥٨-١٩٦١) خمس قصائد للشاعر وجعلتها ضمن مقرراتها الدراسية، وكذلك فعلت وزارة التربية والتعليم الأردنية في العام (١٩٦٦) عندما أشرفت على ترجمة كتاب " طاغور، عبقرية ألهمت الشرق والغرب" من تأليف كريشنا كريبلاني وترجمة حسني فريز، للمزيد انظر؛ د. يحيى الخشاب، طاغور، في كتاب "طاغور شاعر الهند الملهم"، تحرير محمد سعيد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢٠١٠، ص٤٠.

(٢) حسين عفيف شاعر مصري (١٩٠٢-١٩٧٩) وكان عضواً في جماعة أبوللو منذ إنشائها عام ١٩٣٠ وقد ارتبط اسمه بالشعر المنثور الذي يشكل وما يزال ظاهرة جدلية في الشعر العربي، وقد دافع الشاعر عن ذلك بقوله أن الشعر أسبق من الأوزان. له العديد من الدواوين والدراسات. للمزيد، قاموس الأدب العربي الحديث، تحرير حمدي السكوت، دار الشروق، القاهرة، ط٢٠٠٩، ص١٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٨٢.

(٤) علي شلش، الأصل والموطن، طاغور شاعر الهند الملهم، ص١١٦.

(٥) المصدر السابق، ص١١٧.

(٦) الأدباء المشار إليهم من أشهر كتاب ومبديعي العرب حتى اليوم، فقد أسسوا مختلف فنون الكتابة الإبداعية والنقدية، وقد تحولوا بفعل الريادة وغزارة الإنتاج إلى مدارس كلاسيكية للأدب العربي الحديث، " للمزيد، حنا فاخوري، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية، بيروت ط٦، بدون تاريخ "

(٧) حارث طه الراوي، طاغور في بغداد، في : طاغور شاعر الهند الملهم، ص٢٠٠.

(٨) طاغور، قربان الأغاني ترجمة الأب يوحنا قمير، ط١، مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونبة، ١٩٤٨.

(٩) طاغور، مسرح وشعر، ترجمة الأب يوحنا قمير، ط١، دار المشرق بيروت، ١٩٦٧.

(١٠) المصدر السابق، ص٥.

(١١) يحيى الخشاب، طاغور، من " طاغور شاعر الهند الملهم، مصدر سابق ص ٤٠.

- (١٢) المصدر السابق صفحة ٥٠.
- (١٣) بديع حقي، طاغور، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، ١٩٥٨.
- (١٤) طاغور، سلة الفاكهة، ترجمة الأب أيوب فلوح، ط١، منشورات الينوع، لبنان، ١٩٥٨.
- (١٥) أعيد طبع هذا الكتاب ست مرات، كانت أول مرة عام ١٩٥٨، ثم أعيد طبعها في القاهرة عام ١٩٦١، وفي دمشق عام ١٩٦٥، وأخيراً في بيروت عام ١٩٧٣ عن دار العلم للملايين .
- (١٦) محمد شكري عياد، طاغور شاعر الحب والسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.
- (١٧) صدر هذا الكتاب في عام ١٩٦١ وضم عدداً كبيراً من الدراسات والمقالات والأشعار التي احتفلت بالذكرى المئوية لميلاد طاغور، ثم أعيد طبع هذا الكتاب وصدر عام ٢٠١٠ من إعداد وتحرير محمد سعيد الطريحي عن دار نينوى في دمشق.
- (١٨) من أعمال هذا الناقد ما يلي: طاغور الفيلسوف، مجلة المجلة، العدد ٨٣، القاهرة، نوفمبر ١٩٦٣، وكذلك طاغور الصوفي، مجلة المجلة، عدد ٩٣، القاهرة، سبتمبر ١٩٦٤، وكذلك سيناسي والفتاة فاسانتي، مجلة الرسالة الجديدة عدد ٢٥، القاهرة، إبريل ١٩٥٦، وكذلك قصة بوذا، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، ١٩٥٩، وكذلك غاندي بين التصوف والجهاد الإسلامي، مجلة المجلة، العدد ١٥٦، القاهرة، ديسمبر ١٩٦٩، وكذلك عقيدة وحدة الوجود وأثرها على فكر طاغور، مجلة الرسالة، العدد ٣٠، القاهرة، ١٩٥٧، وقد لخص الكاتب المذكور كل ما ذكره في الكتابات السابقة ليضعه في دراسة له نشرها عام ١٩٧٧ في مجلة عالم الفكر، المجلة الثامنة، العدد الأول، الكويت، ١٩٧٧، ص ٢٥٥-٢٨٦ وكانت بعنوان طاغور الفنان، ويمكن اعتبار هذه الدراسة تلخيصاً وتكثيفاً لكل ما ذكره الكاتب في مقالاته ودراساته السابقة.
- (١٩) كريشنا كريلاي، طاغور عبقرية ألهمت الشرق والغرب، ترجمة حسني فريز، دار الكاتب العربي، عمان، الأردن، ١٩٦٦.
- (٢٠) المصدر السابق ص ٥.
- (٢١) طاغور مسرح وشعر، مصدر سابق ص ١٠.
- (٢٢) أنظر هامش رقم ١٧.
- (٢٣) محمد سعيد الطريحي، مصدر سابق، ص ١١، ونحن نعتد النسخة التي صدرت عام ٢٠١٠، وليس تلك التي صدرت عام ١٩٦١.
- (٢٤) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- (٢٥) سيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦) مفكر إسلامي وناقد أدبي، كان من أبرز نقاد الأربعينيات في القرن الماضي، ثم انصرف إلى التأليف في الفكر الإسلامي إلى درجة أنه اعتبر أحد أهم أفضل المراجع الفكرية لحركة الإخوان المسلمين، ومن أشهر كتبه " في ظلال القرآن" و " معالم في الطريق" أعدمه نظام جمال عبد الناصر خلال محاكمة عسكرية، أنظر، حمدي السكوت، مصدر سابق، ص ٢٦٢.
- (٢٦) محمد سعيد الطريحي، مصدر سابق، ص ٢٠.
- (٢٧) المصدر نفسه صفحة ٢١.
- (٢٨) المصدر نفسه.
- (٢٩) المصدر نفسه.
- (٣٠) هذه الفكرة وردت في كتاب " التعقل والحروب النووية" الذي صدر عام ١٩٥٩ للفيلسوف المشار إليه .
- (٣١) الطريحي، مصدر سابق، ص ١٣.
- (٣٢) المصدر نفسه الصفحة نفسها.
- (٣٣) المصدر نفسه، ص ٣٢.
- (٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٣.
- (٣٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

- (٣٦) المصدر السابق، ص ٣٧
(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٣٩.
(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٤٠.
(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٤١.
(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٤٤-٥٤.
(٤١) المصدر نفسه ، ص ٨٥.
(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٨٧.
(٤٣) المصدر نفسه ص ١٠٤.
(٤٤) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
(٤٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٥.
(٤٦) كتب الناقد محمد شكري عياد دراسته هذه في الكتاب الذي صدر عام ١٩٦١ ثم أعيد نشره عام ٢٠١٠، بإشراف وتحرير محمد سيف الطريحي كما ذكر سابقاً. ثم نشر الناقد عياد كتاباً آخر عام ١٩٧٤ بعنوان " طاغور شاعر الحب والسلام"، صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ثم نشر دراسته عن طاغور في كتابه: " بين الفلسفة والنقد" صدر عن منشورات أصدقاء الكتاب في القاهرة عام ١٩٩٠.
(٤٧) الطريحي، مصدر سابق، ص ١٤٨.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٤٩
(٤٩) المصدر نفسه ، ص ١٥١.
(٥٠) الطريحي، المصدر نفسه ، ص ١٧٤ - ١٧٥.
(٥١) المصدر نفسه ، ص ١٧٥.
(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٨٨.
(٥٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٠.
(٥٤) المصدر نفسه ، ص ١٩٢.
(٥٥) المصدر نفسه ، ص ١٩٧.
(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢.
(٥٧) المصدر نفسه ، ص ٢١١.
(٥٨) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤.
(٥٩) المصدر نفسه ، ص ٢٣٧.
(٦٠) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٦١) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨.
(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٧.
(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥٦.
(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٢٦٢.
(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥.
(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٢٦٧.
(٦٧) محمد شكري عياد، مصدر سابق، ص ٨٧.
(٦٨) بديع حقي (مترجماً)، طاغور في الشعر والمسرح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٢، ص ٢٩٩.

- (٦٩) طاغور، تحقيق الحياة ترجمة محمد طاهر الجيلاوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص٦٥، وورد النص أيضاً في الطريحي، مصدر سابق، ص٤٢٦.
- (٧٠) طاغور، أغان وأشعار، ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، إصدارات المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٥، ص٥.
- (٧١) مثلاً المترجم الأب يوحنا قمير يضع عناوين لقصائد ديوان " البستاني" ليس لها عناوين أصلاً، قمير، مصدر سابق، ص١٩٢.
- (٧٢) وحدة الوجود مصطلح من مصطلحات الصوفية تحول إلى إحدى المدارس الصوفية الكبرى في التاريخ الإسلامي، ومن أبرز رموزها المتصوف الشهير" ابن عربي"، وهي مدرسة حلولية جوبهت بكثير من النقد والجدل على مدى القرون الماضية. للمزيد الدكتور أبو الوفا الغنيمي التفاضاني، الطريقة الأكبرية، المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ١٩٦٩، ص٣٥٠ وما بعدها.
- (٧٣) عبد الرحمن غازي القصيبي، الغزو الثقافي ومقالات أخرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩١.
- (٧٤) محمد شكري عياد، بين الفلسفة والنقد، منشورات أصدقاء الكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.
- (٧٥) طاغور، ذكرياتي (بالعربية)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٥.
- (٧٦) أحمد محمد الشنواني، كتب غيرت الفكر الإنساني، ص٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.
- (٧٧) مجلة وجهات نظر، عدد٧، القاهرة، ١٩٩٧، ص٥٠.
- (٧٨) محمد شكري عياد، "في عالم طاغور، طاغور شاعر الحب والسلام، البيت والعالم"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.
- (٧٩) بديع حقي، مترجم، سلة الفاكهة- جني الثمار، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٠.
- (٨٠) فريد الشحف واثئر زين الدين، (مترجمان) ، القصيدة الأخيرة، دار الحوار، دمشق، ٢٠٠٦.
- (٨١) د. علي المحافظة، شخصيات من التاريخ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٩.
- (٨٢) محمد سعيد الطريحي، مصدر سابق تمت الإشارة إليه كثيراً خلال هذا البحث.
- (٨٣) محمد شكري عياد، طاغور شاعر الحب والسلام، مصدر سابق، ص١٨-١٩.
- (٨٤) المصدر نفسه، ص٢٦-٢٧.
- (٨٥) المصدر نفسه، ص٤٢
- (٨٦) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨.
- (٨٧) يكتب يوحنا قمير في مقدمة ترجمته لطاغورمايلي" وأسس والد طاغور جمعية دينية تعبد الإله الواحد البرئ من الأشكال"، يوحنا قمير، مصدر سابق، ص١٣، وعبد العزيز الزكي الذي يقول أن انفتاح طاغور الفني ما هو إلا تضرعات في محراب الدين تقرب الإنسان من الله، الحقيقة الكبرى ومن الوحدة الشاملة، مصدر سابق، ص٢٥٦.
- (٨٨) عبد العزيز الزكي، طاغور الفنان، في: عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، يونيو، الكويت، ١٩٧٧، ص٢٥٥-٢٨٦
- (٨٩) المصدر السابق، ص٢٥٥.
- (٩٠) المصدر نفسه، ص٢٦١.
- (٩١) المصدر نفسه الصفحة نفسها.
- (٩٢) لحظات الكشف مفهوم صوفي وفني أيضاً، وخير من تحدث فيه المتصوفة على اختلاف عصورهم وديانتهم من عرب وفرنس وهنود ويونانيين، أما من أصل لهذه اللحظة فهو الكاتب الإنجليزي كولن ويلسون في كتابه الشهير " اللامتتمي".
- (٩٣) عبد العزيز زكي، مصدر سابق، ص٢٦٩.
- (٩٤) المصدر نفسه ص ٢٧٠.
- (٩٥) المصدر نفسه، ص٢٨٤.